الإسقاط والتأويل وسراديب الإرهاب

في فيلم (المصير) ليوسف شاهين

للمرة الثانية، أشاهد فيلم «المصير» للمخرج العربي العالمي يوسف شاهين، الذي أحبّ أعماله، وأسعى لرؤيتها والتبؤر فيها، لأشعر، بعد مشاهدتي لأيّ من أفلامه، أن السينما العربية بخير، ما دام هذا «المجنون» يطوّح عروش «النمط» المكرور الباهت في براري الخراب، ليفترع الأرض من جديد، وينعف هذه البذور البكر، التي تنهض واثقة ممتلئة ريّانة .

أُحب سينما يوسف شاهين كمواطن رائي، فأنا لستُ ناقداً سينمائياً، لكن فيلم «المصير» جعلني أطرح بعض هذه الملاحظات التي أراها «معقولة» وقد تفيد أحداً، في حين أعرف أن شاهين مخرج ذكي ومجرب ولا يتوقف في محطة فنية واحدة، كما أعتقد أن هذا المخرج صاحب رؤية كبيرة، دفعته إلى الواقعية يوماً، ثم التجريبية بكل تجلياتها الفانتازية والتاريخية والنفسية، حيناً لاحقاً . ونعرف جميعنا، أيضاً، أن هذا المخرج قادر على قراءة التاريخ والواقع بشكل عميق، وأنه، أيضاً، وهذا هو الأهم برأينا، مخرج شجاع جريء وعالي التجريب، دفع إلى عروق السينما المصرية بخاصة، والعربية بعامة، دماء جديدة ورؤية جديدة .

وسأتجاوز ما أثير حول أفلامه السابقة وبالذات فيلم «المهاجر» الذي أخرجه الرجل قبل سنوات عدة، ولن أُشير إلى الرؤية الفكرية التي حكمته أصلاً، بل سأتناول فيلم «المصير» الذي نال المخرج بسببه جائزة مهرجان كان السينمائي، وكان مصدر فخر لنا جميعاً .

فما الجديد والمبهر والخارق للعادة الذي تميز به هذا الفيلم؟ ولماذا هذا الضجيج الذي رافق الفيلم؟

أجيب على هذا التساؤل بالقول: إنّ فيلم «المصير» لم يتحدث أصلاً عن ابن رشد، ولا عن فكره وحياته وقضيته الرئيسة؟ ويتفق معي كل من عرف بالتاريخ والفلسفة أنّ فيلم «المصير» لم يلامس، ولو بشكل ضئيل، قضية ابن

رشد الأساسية، ذلك أن ابن رشد اعتمد منطق أرسطو في صياغة أفكاره ومعتقداته، الأمر الذي أدى به إلى القول: إنّ العالم وحدة أزلية لا يجوز عليها العدم، وقوله بالسببية، واعتقاده أن الإسلام مؤسس على الغيب لا على المنطق، بكلمات أخرى، حاول ابن رشد أن يجعل من الإسلام الذي اعتبره «ايماناً من نوع خاص» ينطبق على قوانين المنطق الأرسطي، ولهذا السبب أنكر علم الكلام الذي يتم من خلاله إثبات أمورٍ لا يقبلها العقل أو المنطق (من هنا فإنّ الأشاعرة الذين وضعوا الأسس العقلية للإيمان السُنّي استعملوا علم الكلام بكثرة، ويعد أبو موسى الأشعري أهم شخصية حتى الآن في هذا المجال)، يضاف إلى ذلك أن منطق ابن رشد قاده إلى إنكار حدوث العالم وإلى اعتماد مبدأ السببية (العلة والمعلول)، الأمر الذي يقود في نهاية الأمر إلى رفض المعجزات والإرادة الإلهية.

هذه الأمور مجتمعة جعلت من علماء السنة والجماعة يتصدون له، ويكيدون له، ويحفرون تحته، ويعملون على تخريب العلاقة بينه وبين الحاكم، في دولة هي أول دولة إسلامية تعتبر الفلسفة أحد أركان شرعيتها .

إنّ الدولة الموحدية، هي الدولة الأولى في تاريخ المسلمين التي اعتمدت مذهب التوحيد الكلامي الذي يخالفه ابن رشد علناً وجهراً، ولا عجب في ذلك إذ أن مؤسس دولة الموحدين هو فيلسوف متكلم يدعى محمد بن تومرت، واستنّ محبة العلماء ومحبته الفلسفة، ولهذا فإن الأمير أبو يعقوب، الذي عاش ابن رشد في كنفه، دعم هذا الأخير وولاّه القضاء مرتين، وكذلك فعل ابنه الأمير يعقوب، إذ ظل حامياً ونصيراً للفيلسوف رغم مخالفته له في آرائه. وفي عهد الأمير يعقوب حدثت محنة ابن رشد، وليست في عهد أبي يعقوب (وهذا عكس ما ظهر في الفيلم).

إذاً، ابن رشد: الفيلسوف والقاضي ورجل الدولة والطبيب، لم يظهر في الفيلم إلا رجلاً يعيش في (ربع) باللهجة المصرية، يضمّ غجراً وأشخاصاً هامشيين، تغلب عليهم أساليب (الحياة الليبرالية)، وظهر ابن رشد داعماً لهذا النوع من الحياة التي تكاد تكون مكشوفة (الأمر الذي يجعل من هجوم الفقهاء عليه مبرراً، من وجهة نظرهم على الأقل، وليس لفكره، فقط) .

ظهر ابن رشد في الفيلم ليس صاحب قضية فكرية، بل صاحب قضية سياسية، وهي الحفاظ على قوانين وأسس المجتمع الليبرالي الحر، حيث لا يمتلك أحد الحقيقة، وحيث الحرية الشخصية غير المنضبطة ولا المقيدة هي أسمى الأهداف، ليس هذا فحسب، بل ظهر ابن رشد، أيضاً، كأنه هو الذي يجب أن يكون الحاكم الفعلي والمقرر الأول والأخير في دولة الموحدين، وظهر ابن رشد، أيضاً، كأنه يملك الحقيقة وحدها (وهو الأمر الذي حاول الفيلم أن يقول عكسه) .

وحتى نقول الأشياء كما هي، حاول الفيلم أن يرصد ذلك الصراع الهائل والطويل والمرير بين «العقل والنقل»، أو «العلم والإيمان»، ولكنه وبدلاً من أن يجعل الفيلم يقوم برصد ذلك بدقة وتاريخية وعلمية، فقد حول هذا

الصراع إلى صراع على النفوذ والمصالح والعروش، وهكذا، فإن الطرف الآخر الذي يمثل عقلية النقل أو حالة الإيمان، ظهر في الفيلم كأنهم وحوش، بأدمغة مغسولة ومنوّمة، ولا يسعون إلا إلى توريط الحاكم ومن ثم السيطرة عليه، وهم من أجل ذلك على استعداد للخيانة؛ خيانة الوطن .

هذا بالضبط ما حصل، أي أن رؤية المخرج، وصلت به إلى إلصاق تهمة الخيانة والفساد والإرهاب لمن يمثلون الفقهاء الذين خالفوا ابن رشد في القرن الثاني عشر .

وقد جُرحت دقة المخرج ونزاهته وموضوعيته عندما صور الخلاف بين الطرفين على أنه خلاف على السلطة السياسية والمصالح والنفوذ، لأنه لم يشر بما يكفي أبداً إلى الفكر الجريء الذي جاء به الفيلسوف، الذي حاول أن يوفق بين الشريعة والعقل. إلا أن ذلك لم يخفف من الغضبة عليه (نحن هنا لا ندعو إلى اغتيال الحريات أو حرية المعتقد والتفكير ولكننا نناقش ما حدث قبل ثمانمائة عام) .

ولأن شاهين لم يناقش ما حدث في الأندلس قبل ثمانمائة عام، وإنما يناقش ما يحدث الآن في مصر والعالم العربي، لهذا جعل من فقهاء إشبيلية وقرطبة أمراء إرهاب وأقطاب تخريب، وجعل من ممثلي التيار الإسلامي السني في الفيلم قوى تعمل ضد العقل والحرية وضد الليبرالية بل والوطن، مسقطاً ذلك على ما يحدث الآن، وما يحدث الآن لا يستدعي من أي مثقف أن يصم هؤلاء بذلك بشكل آلي مباشر، بل عليه قبل أن يفعل هذا، أن ينتبه إلى كثير من العناصر والعوامل والأسباب التي أدت إلى انفجار العنف والإرهاب، في العالم العربي، وعلى هذا المثقف أن يعي تلك العلاقة التي تحكم النظام بجماهيره .. الجماهير لا تحكم بالفقر والحديد والنار ..

وكان شاهين ذكياً جداً في اختباره للهجة المصرية المحكية لتعبر عن هذه الحالة، فمن ناحية يسلب قوة النص تأثيره، ويمحي ما للكلام القديم من سحر، وينزل هذه الرفعة التي يتميز بها القديم إلى الأرض، لنرى كأن ما حدث قديماً يحدث اليوم ، وكأن شيئاً لم يتغير!! ولكن هذا غير صحيح أيضاً ..

ليس هناك حاكم مثل أبي يعقوب الموحدي، ولا مثل ابنه يعقوب اللذين ناصرا الفيلسوف على خصومه (للمعلومات، فإن نفي ابن رشد لم يستمر سوى سنة واحدة، ثم عاد إلى ما كان عليه من حظوة عند الحاكم)، وابن رشد لم يكن يمثل منظمة غير حكومية تتلقى تمويلاً من ملك قشتالة، ولم يكن على صلة بجهاز مخابرات أجنبي، ولم يكن يمثل ثقافة فرانكفونية أو أنجلوساكسونية، ولم يكن مستورداً للتجارب أو مترجماً سيئاً للكلام، كل ما هناك، كان ابن رشد رجلاً حراً في تفكيره، انبهر بالفيلسوف اليوناني وحاول أن يطبق ما قرأه على ثقافته الإسلامية، فكان هذا المزيج العجيب من الفكر الفلسفي المنطقي، الذي يستطيع طالب فلسفة في السنة الأولى من نقاشه (الآن وبعد انفجار الذرة، وزوال الأوهام حول المادة، وقصور العلم والعقل عن إثبات أو ادعاء امتلاك الحقيقة) .

باختصار، يمكن القول: إنّ هذا الفيلم قدم عرضاً خيالياً ورؤية نقدية شخصية لواقعة تاريخية قبل ثمانمائة عام، وإن هذا العرض «الخيالي» وهذه الرؤية تدعونا نحن المشاهدين إلى عدم قبولها كما هي أو الانبهار بالضجيج الإعلامي حولها، ذلك أن هذا الفيلم يقدم وهماً جديداً على وهم قديم، وهو منحاز منذ البداية إلى ما يعتقد أنه الحقيقة النهائية والأخيرة، وأن ابن رشد ضحية عصور الظلام والاغتيال، يتكرر دائماً وفي كل جيل، وأن ثقافتنا تضيق بكل ما هو جريء وحر ..

ولكن الحقيقة التاريخية تقول لنا بكل بساطة: إنّ هذه الأمة ستستمر وستتواصل وستصمد وستتصاعد وستنتصر، لأنّ هذا قدرها الذي قرره الله سبحانه وتعالى في سابق علمه وإرادته، رغم كل النتوءات التي شهدها تاريخ العرب والمسلمين وحالات الحرق والإعدام.

رغم هذا كلّه، فإننا نشير، أيضاً، وبموضوعية كبيرة، إلى قدرة هذا المخرج، يوسف شاهين، على استعمال أدواته العقلية والفنية في إدارة كاميرا بطريقة تكاد تكون مثالية، وتشير، أيضاً، إلى قدرته الكبيرة، في تقديم شخصيات تستطيع حمل مضمونها وتوصيله، وكذلك إلى مهاراته المتعددة في ضبط الإطار ومعالجة المسائل الأكثر تعقيداً لتقديمها بأبسط الأشكال وأكثرها ربطاً للمشاهد .. وربما يقودنا هذا الحديث إلى عشرات الآلاف من الأوهام التي أوقعتنا فيها السينما المصرية بوجه خاص والعربية بشكل عام، من حيث إنها تقدم كل ما ليس فينا، وما لا نعيشه، وما لا نحياه، وكأن السينما في وادٍ ونحن في وادٍ آخر إلاّ القليل القليل .

وبصرف النظر عما قلناه هنا، إلاّ أن هذا الفيلم مثل غيره من أفلام يوسف شاهين، ومهما اختلفت الآراء حول مضامين أفلامه، فإنه يظل واحداً من أهم عباقرة الفن السابع الذي وظّفه لخدمة قضايا مجتمعة، بدءاً من فيلم «باب الحديد» و«الناصر صلاح الدين»، ومروراً بفيلمي «الأرض» و«العصفور» اللذين رفض من خلالهما هزيمة 1967 .. وانتهاءً بفيلمه هذا «المصير» الذي يحاول من خلاله أن ينتصر للعقل وللحريّات في مواجهة الظلامية وقوى القمع والتخلّف.. كل ذلك من خلال أدوات فنيّة استطاعت أن تقول: إن سينما شاهين هي الأكثر عافية، وهي التي نعوّل عليها، فنياً – على الأقل – في التصدي لأفلام المقاولات التجارية التي أفسدت الوجدان وأسقمت العقول وأشاعت الخسران والتفاهة في الروح .

(ا . ط)

يوميات سينمائي

طارق عبد العزيز *

منذ انتقلت إلى السكن في شقة جديدة في مدينة الزهراء، تسألني زوجتي دائماً: لماذا لا تضع لوحة تعريف خاصة بك على الباب أو «الإنتركوم»..؟ وعندما أفكر ماذا أكتب عليها؟ تجيب: كما يفعل الآخرون؛ اسمك ومهنتك، وهنا تبدأ القصة، يعني عليّ أن أكتب على لوحة التعريف أو الكارت كما يفعل الآخرون: طارق محمود عليان «طارق عبد العزيز» مخرج سينمائي، ألا أكون هنا مخادعاً لنفسي وللآخرين، هل يعني أنني حين تخرّجت من كلية الإخراج السينمائي أصبحت، أتوماتيكياً، مخرجاً سينمائياً؟ وكيف أكون مخرجاً سينمائياً في بلد لا توجد فيه سينما في قطاع غزة، لا توجد قاعة عرض سينمائية واحدة، لا يوجد اتحاد للسينمائيين، أو مقهى واحد يجلس فيه الفنانون للحوار أو الجدل السفسطائي.

عندما عملت في تلفزيون فلسطين العام 1998 بعد عودتي إلى أرض الوطن مباشرة، اعتقدت أنني وضعت قدمي على الطريق السليم، وربما خطوت خطوة واحدة إلى الأمام، هنا يتعامل الفنّان مع الكاميرا .. يمتلئ التلفزيون بأطقم المصوّرين، فني الصوت والمونتاج، ولكن، هل مَنْ دَرَس سينما سيكون ناجحاً فعلاً في العمل التلفزيوني؟ كيف سيتميّز عنا الآخرون، كلفوني مباشرة ببرنامج تلفزيوني (رسائل إبداعية)، سيكون لقاء مع فنّان في هذه الحلقة، مطرب! سألنا عن همومه، طموحاته أحلامه .. الخ، سمعنا بعضاً من أغانيه الجميلة، تمنينا له حظاً أوفر ونشاطاً فنياً أفضل، في التلفزيون انتظر الجميع أن تحصل المعجزة! ولكن، ماذا سيقدّم مخرج سينمائي في برنامج تلفزيوني ضمن تلفزيون ناشئ .. المفاجأة للبعض أنه أخرج برنامجاً تلفزيونياً عادياً ربما استطاع أي مخرج أو منفّذ آخر أن يقوم به، يريدون سينما!

كيف سنتعامل مع السينما، سؤال جاد.. إجابة مقلقة.

السينما، في رأيي، دراما .. ليست دراما على الشاشة، فقط، ولكن هي دراما في الحياة، عندما تقوم بلد ما بخلق السينما فذلك من أجل عرض صورتها في العالم، أو للحديث عن القضايا القومية والوطنية، أو ربما، فقط، لإمتاع الجمهور .. أو .. أو، نحن قبل كل شيء بحاجة إلى توجه وطني وقرار لعمل سينما، فالسينما ليست فنّاً، فقط، بل

السينما صناعة، أيضاً، السينما في هوليوود وفي كلّ العالم صناعة.

أما العامل المهني الآخر اللازم فهو توفّر عناصر السينما في المجتمع؟ وأولّها، وقبل كل شيء، هو الأدب!! فمن أجل أن تكون هناك دراما جميلة على الشاشة، يجب أن تكون هناك دراما على الورق أولاً، العمل السينمائي الناجح يحتاج إلى نصّ جميل .. وهنا ندخل في إشكال آخر لا يقلّ حجماً عن الإشكالات الأخرى .. مَنْ يستطيع أن يقيّم الأدب والأدباء في بلدنا؟

ولكن، أين النصّ الجيد؟ أنا لا أدّعي أنه مفقود، ولكنّه شبه مفقود.. ربما سيكون السبب ذاتياً؛ بعدم المقدرة وقلّة التجربة، وربما موضوعياً، بانعدام الاحتراف المهني لكتابة النصّ، والنتيجة واحدة: نحن نفتقد أحد عناصر السينما المهمّة.

مرّت سنة كاملة إلى أن أتيحت لي فرصة إخراج عمل درامي من إنتاج تلفزيون فلسطين، أخيراً أجد الفرصة أمامي لأقف خلف الكاميرا وأصرخ: ثلاثة.. اثنان..واحد.. أكشن.

لم يكن النص جيداً، أو لم يكن المطلوب عملاً عظيماً لمهرجان سينما ولم تكن موازنة الفيلم تسمح بأن أدوّنها في هذه الأسطر القليلة.

وقفت خلف الكاميرا، صرخت: «أكشن .. لا مش هيك .. عيد من أوّل .. جميل يا شباب!»، كانت تجربة، أنا أحب أن أكون مجرّباً. تعددت الآراء، «يوميات أبو العزّ» كان عادياً في رأي البعض، هابطاً في رأي الآخرين، جيداً في رأي ثالث.

يبقى السؤال عندي: متى سأقدّم عملاً أرتضيه؟ ما هي الفكرة والهدف؟! حياتنا مليئة بالدراما من طفلي ذي السنوات الثلاث الذي يطلب مني أن أوصله إلى مفترق الشهداء كي يرمي اليهود بالحجارة، إلى صديقي الذي انقطع عن العمل جراء الإغلاق فأصبح لا يستطيع إطعام عائلته.

ماذا سأقدم للسينما في بلادنا أو في قطاعنا الذي أعيش فيه، ربما كان الأمر أفضل في مكان آخر في العالم، في قطاعنا تم دق المسمار الأول أو الثاني أو الثالث في نعش السينما.. هدمت قاعة سينما الجلاء، ربما يذكر الكثيرون هذه السينما، كنت طفلاً صغيراً أستجدي أمي ليرات قليلة آتي بها إلى مدينة غزة لأرى فيلماً صينياً لـ«بروس لي»، أو هندياً يثير فينا المشاعر الجياشة من الضحك إلى البكاء في أوّل دقائق الفيلم .. أمّا الآن فلا يوجد شيء من هذا «إطلاقاً»، أحجار سينما الجلاء لم تعد في مكانها .. سينما عامر تقف دون سقف، سينما النصر في منتصف الطريق بين الساحة والرمال.. بين التعمير والطمع الجشع الأناني البحت.

وإلى أن تدخل السينما من جديد إلى قاموسنا

– حرف السين سيــ..نيــ..ما.
– رأيت بالأمس فيلماً رائعاً ..
– نلتقي في السابعة في سينما كذا!
– اثنان.. واحد.. أكشن ..
– أتقاضى ألفي دولار على السيناريو.
–أكثر ما أعجبني في الفيلم ..
– أتمنى أن أصبح ممثلة..

---

* مخرج سينمائي فلسطيني يقيم في غزة.